وطن يباع ويشترى !!!

ناهض منير الريس

إخوة الوطن في كل مكان وكل موقع

الرئيس / محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية

السيد / الأستاذ الدكتور عزيز الدويك رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني أو نائبه

السيد / الأستاذ سليم الزعنون رئيس المجلس الوطني الفلسطيني

السيد / الأستاذ اسماعيل هنية رئيس الوزراء المقال ومجلس وزرائه

السيد / الدكتور سلام فياض رئيس الوزراء المكلف ومجلس الطوارئ

السادة / أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني

السادة / أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني

السادة / أمناء سر الفصائل الفلسطينية

السادة / أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية

السادة / أعضاء المكتب السياسي لكل فصيل فلسطيني

السادة / رؤساء النقابات والهيئات والجمعيات الأهلية

السادة / رؤساء تحرير الصحف الفلسطينية

السلام عليكم ورحمة الله .

لقد تعمدت أن أجمع في توجيه هذا الخطاب كل من ظننته مسؤولا في هذا الوطن الفلسطيني وخارجه . ثم وجدت من الضروري أن أوجه الخطاب إلى غير المسؤولين أيضا لأن الموضوع يجب أن يستنفر الجميع .

والموضوع هو الأرض الفلسطينية . والمناسبة هي الأنباء التي جاءت من رام الله تتحدث عن إباحة بيع أراض فلسطينية إلى متملكين أجانب . وكذا
قيام سلطة الأراضي هناك بتسجيل معاملات البيع لسبعين أجنبيا من الجنسيات الأمريكية والبرازيلية والأسترالية والكندية والأردنية نشرت أسماءهم في كشف خاص . ثم الحديث المنسوب لأحد كبار المسؤولين هناك الذي يقول عن النبأ : " إنه لا يحمل أي مغزى سلبي على الإطلاق بل جاء من أجل تعزيز الاستثمار وتسهيل العمل في استصلاح الأراضي الزراعية وإقامة المشاريع التنموية وتشجيع الاستثمار الأجنبي في الأراضي الفلسطينية " . (!)

وقبل اليوم لم تحركني أمور ذات بال في حرب الإخوة لأن طابعها شخصي ولأنني حسبت الخوض فيها مدعاة لمزيد من التباعد . ولكن ما يخص الأرض لا يمكن السكوت عليه ولا يمكن حسبانه من الصراعات المحلية ولا يجوز الإغضاء عنه بوصفه من المسائل التي تحتمل اختلاف الآراء ، لأن شبر الأرض الذي يذهب للعدو وطن ضائع وليس قطعة من الاستثمار العقاري الرابح أو الخاسر . لذلك نبه ابراهيم طوقان رحم الله روحه إذ قال : ((وطن يباع ويشترى وتصيح فليحيى الوطن ؟!)) ففهم مبكرا منذ عشرينيات القرن الماضي وأفهمنا أن بيع الأراضي في فلسطين يحمل معنى بيع الوطن نفسه . وهكذا كانت الأرض على مدار القضية الفلسطينية من ساعة نشوء القضية حتى اليوم . وهكذا ستبقى . فخلافا للاستعمار بمعناه التقليدي الذي يتخذ له قاعدة في البلاد ويحكم أهاليها ، وخلافا للامبريالية التي تغرز أنيابها في البلاد بواسطة الشركات متعددة الجنسيات وتمتص خيرات البلاد ، بل وخلافا

للاستعمار الاستيطاني على النمط الفرنسي الذي اقتسم أراضي الجزائر مع أهل الجزائر ، فإن الاستعمار الصهيوني نسيج وحده . وهو الاستعمار الذي يستوطن أرضك ثم يقتلعك منها ويقيم فوقها كيانا يلفظك ويتنكر لصفتك ويحتكر ادعاء الحق ! وصدق من قال : استعمار . عنصري . استيطاني . اقتلاعي .

إنني أتهم من يفرط في الأرض عن طريق تسهيل بيعها أو تعريضها للتداول بأنه ارتكب أفحش الجرائم وعبث بأخطر الثوابت وأقدسها وأشدها حساسية على الإطلاق .. إنه لم يضيع الأرض وحسب ، ولكنه يضيع القضية . وعدا عن تضييع الأرض والقضية فإنه يضيع السمعة والكرامة . أليس حسبكم أيها المفرطون أن بعض الجهلة أو المتجاهلين في البلاد العربية الشقيقة أوسعونا في عام ١٩٤٨ زجرا وقدحا وتشهيرا وهم يسمعوننا قوارص الكلم " باعوا أرضهم ويريدوننا أن نرجعها لهم " و " كانوا يبيعون عساكرنا لليهود كما باعوا أراضيهم " . وألم تسمعوا عودة تلك النغمة للظهور مؤخرا على ألسنة الكتبة المومسين زبائن السفارات الأجنبية وهماسيها المأجورين .. حتى بعدما مر على حرب النكبة ستون عاما وغسل فلسطينيو الجيل الثالث بعد النكبة وطنهم الصغير بطبقة جديدة من دماء الأبناء فوق نجيع الآباء ؟!

لا يقولن لنا أحد إنه يجهل أساليب الحركة الصهيونية في الاستيلاء على أراض في فلسطين بكل وسيلة بدءا بملايين المليونير اليهودي روتشيلد الذي أسس عام ١٨٨٣ رابطة الاستعمار اليهودي لفلسطين، مرورا بملايين الكيرين كاييمت وشركة تطوير أراضي فلسطين التي أسسها المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، ثم قوانين هربرت صمويل المندوب السامي اليهودي البريطاني

الذي منح الحركة الصهيونية مليونا وربع مليون دونم من أراضي الدولة ، وسن في عام ١٩٢٠ قانون انتقال الأراضي ثم عاد فعدل القانون عام ١٩٢١ بما يسهل للصهيونيين تسجيل الأراضي لحسابهم . وفي تلك المراحل الأولى تسلمت الوكالة اليهودية من حكومة الانتداب ملايين الدونمات . كما اشترى الصهاينة من عدد من الأغنياء اللبنانيين من عائلات سرسق والتيان وسلام مئات آلاف الدونمات في مرج بن عامر وإصبع الجليل وذلك بعدما وضعت الحدود بين العرب وصار لبنان قطرا تحت حكم الفرنسيين وفلسطين قطرا تحت حكم البريطانيين .

هذا ولا داعي لإنكار وجود بعض السفلة وضعفاء النفوس من أفراد الشعب الفلسطيني . وأي شعب يخلو منهم ؟ . الذين باعوا أراضيهم للكيرين كاييمت فتصدى لهم ابراهيم طوقان محذرا وموجها بقوله : أعداؤُنا منذُ أنْ كانوا صيارِفَةٌ . ونحن منذ هَبَطْنا الأرضَ زُرَّاعُ / يا بائِعَ الأرضِ لمْ تَحْفِلْ بِعاقِبَةٍ . ولا تَعَلَّمْتَ أنَّ الخَصْمَ خَدَّاعُ / وغَرَّكَ الذَّهَبُ اللَّمَّاعُ تُحْرِزُهُ . إنَّ السَّرابَ كما تَدْريهِ لَمَّاعُ / فَكِّرْ بِمَوْتِكَ في أرضٍ نَشَأْتَ بِها . واترك لِقَبرِكَ أرضاً طولُها باعُ .

وبعض السفلة لم يكتفوا ببيع أراضيهم وإنما انحدروا لدرجة السمسرة لصالح الكيرين كاييمت بحيث اشتروا من مواطنيهم وباعوا للعدو . فقال الشاعر بلسان البلاد كلها : أمَّا سماسرةُ البلادِ فَعُصْبَةٌ . عارٌ على أهلِ البلادِ بقاؤُها / يَتَنَعَّمونَ مُكَرَّمينَ كأنَّما . لِنَعيمِهِمْ عَمَّ البلادَ شَقاؤُها / هُمْ أَهْلُ نَجْدَتِها وإنْ أنْكَرْتَهُمْ . وهُمُ وأنْفُكَ راغِمٌ زُعَماؤُها !! وأذكر في طفولتي ونحن في بداية تعلمنا القراءة أننا كنا نقرأ على جدران حارتنا عبارات كتبت سرا للتنديد بذلك الفعل الخسيس : فلان الفلاني خائن الوطن سمسار اليهود ..!

كان ذلك كله قبل النكبة . وعندما حدثت اشتباكات حرب النكبة كانت بعض هذه الأراضي التي اشتراها العدو من أولئك الخونة قد أصبحت مستعمرات أو نقاطا حربية ركزت على الطرق بين المدن والقرى أو على المفارق التي تتحكم في حركة المواصلات .

ثم كانت القاضية في حادث النكبة واستيلاء الصهاينة الغاصبين حربا على أراضي فلسطين كلها .

ومع ذلك فإن إسرائيل الدولة التي نشأت فوق أراضينا راحت تبحث عن تغطية قانونية لملكية الأراضي المنهوبة بقوة السلاح . فاخترعت مجموعة قوانين (إسرائيلية) ليس فيها ذرة واحدة من العدالة والمنطق كقانون عام ١٩٤٨(الاستيلاء على أرض ساعة الطوارئ) وقانون عام ١٩٥٠ (أملاك الغائبين) . ثم نظَرَتْ فَقَدَّرَتْ فخطر لها سهولة الطعن في قوانينها لكونها تصرفا من طرف واحد هو المحتل ، فصممت وفق عادتها الشيطانية على استغلال الأوضاع السياسية والإنسانية التي مر بها أهالي فلسطين بعد النكبة لمحاولة ترغيب ضعفاء النفوس منهم في بيع أراضيهم الكائنة تحت الاحتلال . وقد علمت شخصيا أنه تمت في مرحلة ما بعد النكبة مباشرة بيوع للصهيونيين الذين اتصلوا ببعض المالكين ممن كانوا يعرفونهم قبل النكبة ودعوهم لملاقاتهم في قبرص وإجراء البيوع هناك في السر . واستمرت هذه الظاهرة بدأب ويحضرني أن كثيرا من زوار الصيف الفلسطينيين في السنوات التي فتحت إسرائيل فيها مجالات الزيارة بموجب طلبات من الأهالي الفلسطينيين لأقاربهم في الخارج قد جرت مراودتهم عن أملاكهم الباقية في الوطن . وكان ضباط الشين بيت يسلمونهم إلى عملاء الكيرين كاييمت التي لا تزال ناشطة حتى

اليوم لإجراء المساومات وعقد الصفقات بموجب عقود بيع ذات تواريخ قديمة قبل نكبة فلسطين . والقصد بطبيعة الحال أن لا يقول فلسطيني في المستقبل . عندما يتاح للفلسطينيين أن يتكلموا . إن إرادته كانت مشوبة بعيوب التدليس أو الإكراه .

ولا بد هنا أن نضيف البلوى الكبرى المتعلقة بالقدس حصرا . فقد ذهبت الممتلكات الفلسطينية في القدس الجديدة ضمن سائر المناطق التي احتلوها بقوة السلاح عام ١٩٤٨ . أما القدس القديمة فقد تركزت الجهود الصهيونية على استملاك أية قطعة فيها يوما بعد يوم بأعلى الأسعار منذ وقعت تحت الاحتلال عام ١٩٦٧ . واستخدم الإسرائيليون جميع الضغوط والألاعيب والإغراءات وتزوير المستندات واستخدام السماسرة ، ولاحقوا النازحين من أهالي القدس في مهاجرهم ، لا سيما في الولايات المتحدة ، وقدموا لهم العروض وصاغوا لهم بواسطة اللوبي الصهيوني هناك خيارات من الصعب رفضها لكي يتنازل هؤلاء عن أراضيهم القليلة ضئيلة المساحة عموما . فالملكيات في القدس القديمة معظمها أوقاف ذرية . وقد توارثها المستحقون من العصبات والأنسباء عبر الأجيال فصارت الأنصبة في عصرنا الراهن في منتهى الضآلة ، حتى إن ما يخص معظم الورثة قد لا يزيد على سنتيمترات قليلة . وقد تابعت أجهزة الموساد واللوبي في أمريكا هؤلاء الفلسطينيين الملاك الصغار بالعروض المغرية فمنهم من قاوم وامتنع ومنهم من خضع لغسل الدماغ وسقط في الحبائل .

وتم ذلك كله بدأب وصبر ودون رحمة . وكم من جرائم ارتكبها الإسرائيليون وكم من حيلة ابتدعوها للاستيلاء على عقار من العقارات أو لوضع (مسمار جحا) في عقار بانتظار محاولة لاحقة لدق المزيد من المسامير .

وذلك كله كان طابع نهب الأراضي بعد عام ١٩٦٧ . فماذا عن أيام السلطة الوطنية؟!

(يتبع)